

## الفصل السادس

### العهد العثماني

ابتداء من القرن السادس عشر ، يقس الوطن العربي تحت سيطرة الاستعمار العثماني ، ولا يسلم منه الا مراکش ( المغرب الآن ) ، وكان من طبيعة الأشياء أن تتخلف الثقافة العربية في عهد السيطرة التركية وذلك نظرا الى أن الاتراك وان كانوا مسلمين ، الا أنهم لم يتعموا اللغة العربية فبقوا بعيدين عن روح الثقافة العربية ، وحتى عن روح الاسلام . ثم لأن هذا الاستعمار هبط بالعرب الى أمة تابعة ، فهد ذلك من معنوياتها ، وأنقص من ثروتها وصرفها عن تيار التقدم الذي لا ينشط الا في ظلال السيادة والحرية . بل نستطيع أن نقول أن من أهداف الحكومة العثمانية ، كان اهمال الوطن العربي وجره الى التأخر والتدهور المادي والمعنوي حتى لا يتطلع الى الاستقلال . ويكفي أن تعرف أن تلك الحكومة لم تجد بأسا من أن تضع للولايات العربية حكومات قائمة على النزاع والمنافسة والسلب واقتسام الغنيمة ، ومن ذلك سيطرة أمراء الماليك على مصر في العهد العثماني بكل ردائل هؤلاء الأمراء وتخلفهم الفكري والحلقي (١) .

وفيما يلي من صفحات سنفصل ما أجمناه من حيث ما ساد من ظروف وأحوال وما كان لها من أثر على التربية في بلد مثل مصر .

### البناء الاقتصادي القائم على الاستغلال طريق الى التخريب الثقافي وضمحلل التعليم :

ارتبط التعليم طوال عهود التاريخ المتعددة في مختلف المجتمعات بالاقتصاد ارتباطا وثيقا ، فما من فترة تاريخية شهد فيها المجتمع ازدهارا اقتصاديا وانتعاشا في أحوال الناس المعاشية الا وصحب ذلك الازدهار وذلك الانتعاش ازدهار مماثل في أحوال التعليم والثقافة بفروعها المختلفة ،

(١) أبو الفتوح رضوان : القومية العربية . الهيئة العامة للكتاب والأجهزة العلمية ١٩٦٨

والعكس صحيح ، ولعل هذه الفترة التى نتصدى لدراستها وبحث أحوالها تعد شاهدا صارخا على هذه الحقيقة .

فاذا كنا نقرأ فى الخطط التوفيقية لعل مبارك أنه ابتداء من القرن التاسع الى القرن الثانى عشر ( هـ ) يعنى مدة ثلاثة قرون قد أهمل أمر المدارس ، وامتدت الأطماع الى أوقافها ، وتصرف فيهما النظار على خلاف شروط وقفها ، وامتنع الصرف على المدرسين والطلبة والخدمة فأخذوا مفارقتها . وصار ذلك يزداد فى كل سنة عما قبلها كثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد حتى انقطع الالتفات الى عماراتها . . . فامتدت أبدى الناس والظلمة الى بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها حتى آل بعض تلك المدارس الضخمة والمباني الجليلة الى زاوية صغيرة نراها مغلقة فى أغلب الايام وبعضها زال بالكلية وصار زريبة أو حوشا أو غير ذلك . . .

نقول اذا كنا نقرأ مثل هذا مما يدل على مدى ما أصيب به التعليم فى العهد العثمانى والمملوكى من اضمحلال وذبول ، فان استقصاءا بسيطا للنظام الاقتصادى فى ذلك المجتمع فى هذه الفترة ، يفسر لنا هذه الظاهرة .

فلقد كانت النظرية السائدة فى مصر منذ تقدم أن الملك أو الحاكم هو المالك لجميع الأرض يتصرف فيها كيف شاء « فكان يقسمها بين أتباعه وأعدائه وبين المزارعين والفلاحين ، وكان هؤلاء يستغلون الأرض نظير دفع الضرائب والاتاوات المفروضة عليها ، فلم يكن لهم حق ملكية الأرض . ولما وقعت مصر فى قبضة السلطان سليم ، صادف هذا النظام هو نفسهُ ، فأمر بإبقائه ، وبذلك أصبح المالك لجميع الديار المصرية ، ثم أمر بمسح جميع الأراضى الزراعية وتقسيمها بين الأهالى كما أمر بتسجيل هذه الأراضى وأسماء المنتفعين بها وما فرض عليها من ضريبة .

ولما أخذت قوة الوالى فى الضعف بعد مضى قرن على الفتح العثمانى ، وقويت شوكة المماليك ، وأخذوا يستبدون بالأمر فلم يرعوا حرمة قانون ولم يكثرثوا بما كان موجودا من قواعد ونظام ، ولذا أخذوا يتصرفون فى الأراضى حسب ما كانت تعطى عليهم ارادتهم ومنفعتهم حتى أصبحوا مالكين لنحو ثلثى الاراضى المنزرعة وما بقى كان موزعا بين الاوقاف والفلاحين وغيرهم .

وأقبل كثير من الناس على وقف أراضيهم خوفا من ضياعها ، ولأن الأراضى الموقوفة على الأعمال الخيرية كانت معفاة من دفع الضرائب ، ولكن

الحكومة انزعجت من هذا الاقبال ، فأمرت ألا يتم وقف الا باذن خاص منها ، وكان نظار هذه الاوقاف عادة من بين طائفة العلماء الذين كانوا يستغلون هذه الأراضي ويتصرفون فيها كأنما هي ملكهم الخاص .

وأصابت هذه الفوضى الزراعة بالرغم من أنها كانت مصدرا لثروة البلاد ، فلم تنظر الحكومة بعين الاهتمام الى وسائل الإصلاح ، وعلى الأخص عندما استبد الممالك بالأمر دون الولى والديوان ، وكان همهم الأكبر أن يحيطوا حياتهم بأنواع البذخ والنعيم . وأهمل الحكام انرى وتوزيع المياه وإقامة القناطر والجسور ، وحفر الترغ والمصارف وتطهير ما هو موجود منها حتى ضعفت الأرض وانحطت الزراعة وقلت المحاصيل .

وقد غالى المالك فى ابتزاز الأموال من الأهالى وانغمسوا فى الترف فى مسكنهم وملبسهم ومعيشتهم ، وصار أهل البلاد فى فقر مدقع . فلما اختفت رموس الأموال من الأهالى أصاب الصناعة من ذلك رشاش شوه جمالها وذهب بدقتها ، فتناولتها عوامل الاضمحلال . والواقع أنه كان للسلطان سليم يد فى هذا الاضمحلال ، اذ أنه جمع أمهر الصناع وأكفأ الاختصاصيين فى الفنون وبعث بهم الى الاستانة لينشروا فيها ما أوتوا من علم ومهارة وحقق فى الصناعة . ولم يبق بالبلاد غير الصناعات الطغرى التى بقيت فى بعض مراكز الصناعة .

واذا ما قارنا بين اقتصاد الفئات الحاكمة وبين اقتصاد السواد الأعظم من الشعب ، فسوف تصدمنا المقارنة لهول ما تحمله من آيات الظلم الاجتماعى والاستغلال الاقتصادى . انها تبين بما لا يدع مجالا للشك تلك الحقيقة التى ينبغى أن نضعها نصب أعيننا هنا وهى : كيف كان النظام الاقتصادى القائم على التخريب والتجويع طريقا الى التخريب الثقافى والتجويع العقلى .

فعندما زار « فولنى » مصر فى أواخر القرن الثامن عشر ، قدر عدد المالك بنحو ٨٥٠٠ مملوك من الرؤساء الذين ينفق الواحد منهم على سلاحه وملبسه وزوجاته نحو ٢٥٠٠ جنيه فى العام ؛ وكان البكوات الكبار من المالك يخلعون على أتباعهم فى أيام المواسم الخلع النفيسة المصنوعة فى فرنسا أو البندقية ، ومن كشامير الهند وحرير دمشق ؛ وكانوا اذا أعتقوا مملوكا ورقوه درجة ، يمنحونه منزلا فاخرا مؤثنا بالرياش الفاخرة ويزوجونه فيهبونه الجوارى الحسنان . وكان التنافس بين زعماء المالك سببا فى تخريب

البلاد ، فاذا خاف أحدهم على نفسه من فتك الآخر ، يغير بجماعته على مديرية من المديرية ويستولى على خراجها وضرائبها من المتزمتين ، وكثيرا ما يستحل المديرية أو المديريتين لنفسه ملكا حلالا .

ولا يخفى أن الفزوات التي قام بها على بك الكبير كلفت مصر وأهلها أكثر من ستة وعشرين مليوناً من الجنيهات ، وقد ذكر « فولنى » أن على بك الكبير ابتاع خنجرا مرصعا بالجواهر الكريمة ببلغ ٢٥٠٠٠ من الجنيهات !!

فاذا تصفحنا يوميات الجبرتي لئرى الطرف الآخر ، فسنجد أنه عند ذكر حوادث عام ١١٩٨ هـ يذكر أنها انقضت - مثل السنة التي سبقتها - والشعب يعاني من الفلاء والقتل المستمرة وانتشار اتباع الأمراء فى الأقاليم المختلفة لابتزاز الأموال . . « حتى أهلكوا الفلاحين وضاق ذرعهم واشتد كربهم ، وطفشوا من بلادهم » .

كذلك لجئوا الى التجار يطلبون منهم سلفا ضخمة ، وعندما كان هؤلاء يتيقنون أن هذه السلف لن ترد ، استعوضوا خسارتهم من زيادة الأسعار ولم يقتصر الأمر على ذلك ، بل مدوا أيديهم الى الحواريث يسلبونها سواء كان لها وارث أم لا ، وأصبح بيت المال من المناصب التي يتولاها أشرار الناس ، ما دامت الرشوة تدفع . وكان لهذا ولغيره من الصور البشعة تأثير على مجموع أفراد المجتمع ، ويعلق الجبرتي معددا هذه الآثار فيقول :

« وفسدت النيات وتغيرت القلوب ، ونفرت الطباع وكثر الحسد والحقد فى قلوب الناس لبعضهم البعض ، . . فيتتبع الشخص عورات أخيه ويدلى بها الى الظالم حتى خرب الاقليم . وانقطعت الطرق ، وعربدت أولاد الحرام ، وفقد الأمن ، وجلا الفلاحون من بلادهم من الشراقي والظلم . وانتشروا فى المدن بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره . . فلا يجد الزبال شيئا يكتسه من ذلك ، .

انه لمن غير المعقول وأفراد المجتمع يعانون من حرمان فى حاجاتهم الأساسية ويفتقدون الأمن ، أن يطلبوا بعد ذلك علما وأن يبتغوا تعليما . وكذلك من غير المعقول لطائفة من اللصوص وقطاع الطرق يتسيدون البلاد ، تدور بينهم المعارك اليومية ابتغاء الاستئثار بغنم أو السطو على اقليم أن يفكروا بعد ذلك فى فتح مدرسة أو تقرير منهج تعليم أو تشجيع حركة أدبية أو علمية ، فكل ذلك توارى الى الخلف بعيدا ولم يطلع على السطح الا الرغبة

فى لكمة عيش بالنسبة لسواد الشعب ، ومزيد من الجشع والمال بالنسبة  
لحكام هذا الشعب .

كذلك فقد أصبح من الطبيعي أن تضمحل الآداب العربية بعد ذلك  
وتخمد القرائح وتركذ حركة العلم . وصارت مخاطبات السلاطين والولاة  
باللغة التركية بعد أن كانت العربية لسان الحكومة لغاية انتهاء دولة السلاطين  
البرجية .

واندثرت المدارس التى كانت زاهرة فى عهد الفاطميين والايوبيين  
وخلفائهم السلاطين البحرية والبرجية ، وتبددت خزائن الكتب التى يرجع  
انشاؤها الى عهد الفاطميين ، ولم يبق منها الا المكاتب الملحقة بالمساجد  
كمكتبة الأزهر التى كان بها الى عهد السلطنة العثمانية ٢٣٠٠٠ مجلد .

من أجل ذلك فلما نبغ من عهد الفتح التركى شاعر أو عالم أو أديب  
ولا تكاد تجد فى هذا العصر سوى « شهاب الدين الحفاجى » و « السيد محمد  
مرتضى الزبيدى » العالم اللغوى المشهور صاحب « تاج العروس فى شرح  
جواهر القاموس » و « عبد الوهاب الشعرانى » صاحب الطبقات وغيرها من  
المصنفات الكثيرة ، و « ابن أبى السرور البكرى الصديقى » صاحب الروضة  
المانوسة ، و « عبد الرحمن الجبرتى » المؤرخ المشهور . ولو تأملنا فى تراجم  
من ذكرهم الجبرتى فى كتابه من علماء ذلك العصر رأينا منهم من يصح  
اعتباره عالما نابها فى الفلسفة أو العلوم أو الآداب . وانحط أسلوب الكتابة  
حتى قرب من العامة . وكان الم جيدون من الكتاب والادباء لا يتوخون فى  
كتابتهم الا بتنميق العبارات بالسجع الركيك والمحسنات البدعية كالجناس  
والتورية . واضمحلت روح البلاغة ، ولم يبق فى متناول الجمهور من آثار  
الآداب العربية سوى قصص أبى زيد الهلالي وعنترة والزنانى خليفة وما الى  
ذلك . وتضاءلت مكانة الشعر والادب لدرجة أن كلمة « شاعر » كانت تطلق  
على جماعة يجلسون فى القهوة وينقون على مسامع الجماهير قصص أبى زيد  
والظاهر بيبزس وينشدونها على أنغام الربابة .

### التركيب الاجتماعى وأثره على اتجاهات التعليم :

فاذا تأملنا فى تركيب مصر الاجتماعى فى هذه الفترة ، نجد أن العناصر  
الرئيسية التى كان يتكون منها المجتمع هى : المالك - الأتراك - المثقفون -  
أرباب الحرف والصناعات - البدو - أهل الذمة - العوام - الفلاحون -

التجار - الأجانب . ودراسة التركيب الطبقي في المجتمع مسألة لها أهميتها وضرورتها من حيث أن قيمة العلم والتعليم تتحدد بناء على القوى الاجتماعية المسيطرة كما أن أبناء القوى الاجتماعية المختلفة هم الوعاء الذي يحتوى ما سيتم من معارف ومعلومات واتجاهات ، ومن ثم سيتحدد بناء على هذا الشكل الذي ستأخذ به مواد التعليم ومناهجه .

أما أثر هذا التركيب الاجتماعي الذي كان قائما على التعليم ، فإننا يمكن أن نلاحظ ما يلي :

- بحكم تبوء بعض الأقباط لعدد كبير من الوظائف الحكومية ، كانوا يقبلون على تعلم القراءة والكتابة والأعمال الحسابية ، وكان للأقباط كتاباتهم التي كانت تهدف الى ما تهدف اليه كتابات المسلمين كما تشابهت في درجة ثقافة القائمين عليها .

- وكان اليهود أكثر اقبالا على الاشتغال بالطب من المسلمين : قال داود الانطاكي في مقدمة تذكرته : « ٠٠٠ فاني حين دخلت مصر ورأيت الفقيه الذي هو مرجع الأمور الدينية يمشى الى أوضع يهودي للطبيب به فعزمت على أن أجعله - الطب - كسائر العلوم ، يدرس ليستفيده المسلمون » وتعاطى الطبيب كذلك بعض الأقباط ولا سيما الرهبان ، .

- صاحب وفود الأجانب الى مصر ارساليات أجنبية تهدف الى جذب اقباط مصر الى الكنيسة الكاثوليكية ، وبدأ ذلك على يد الرهبان الفرنسيين حتى أنه في عام ١٧٣١ م أمر البابا الرهبان الفرنسيين بمصر بأخذ أطفال الأقباط الصغار وارسالهم الى روما لكي يتعلموا وفق تعاليم الكنيسة الكاثوليكية الرومانية . ثم توافد غير هؤلاء بعد ذلك ، فأنشئت مدرسة صغيرة تجمع كل الأطفال الكاثوليك ويدرس لهم الرهبان الفرنسيون اللغتين العربية والإيطالية ، وذلك سنة ١٧٣١ في حي الموسكى . وكذلك نشط اليونان في هذا المجال منذ عام ١٦٤٥ م حينما افتتحت الجالية اليونانية مدرسة خاصة لها في مصر القديمة في دير سان جورج . ثم توسعوا بعد ذلك ، فأنشأوا مدرستين أخريين ، احدهما في حارة الروم ، والأخرى في حي الحواتية بالقاهرة . ثم أنشأوا مدرسة أخرى بالاسكندرية في دير سان ساباس .

- كان من الطبيعي ألا يحظى البدو والعوام والفلاحون بأى لون من التعليم لما كانوا يقاسونونه من مرارة العيش واضطرارهم الى قضاء وقتهم كله

تقريبا في الحصول على القسوت الضروري وباعتبار هؤلاء يكونون الجمهرة الكبرى من المجتمع فقد ساعد ذلك على « تجييده » أو عزله عن حركة التطور .

- لما كانت الحرف والصناعات القائمة من النوع اليدوى البسيط فقد أدى هذا الى أن يكتسب الصغار هذا النوع عن طريق الممارسة والتقليد المباشر ، دون حاجة الى أن يتم ذلك في معهد خاص عن طريق معلمين متخصصين ، وكذلك كان الأمر بالنسبة للأعمال التجارية .

- أما العلماء والفقهاء وبعض الأدباء والكتاب . هؤلاء كان يتم اعدادهم داخل الجامع الأزهر وبعض المدارس الماثلة والكتاتيب . وكان الجامع الأزهر اكبر المعاهد العلمية في مصر ، ولكنه مع ذلك لم يكن المعهد الوحيد للدراسات العليا ولتخريج العلماء . بل كان يوجد الى جانبه عدد من المدارس والمساجد تشاركه في القيام بهذه المهمة . ونتيجة للشهرة التعليمية الطيبة التي كان يتمتع بها الأزهر أصبحت مساجد القاهرة ومدارسها الأخرى تعتبر وكأنها فروع له . حقيقة كان لهذه المساجد والمدارس أوقاتها الخاصة ، ولكن كانت القاعدة أن وظائف التدريس بها يتولاها شيوخ من الأزهر .

والى جانب هذا كانت توجد بمصر ثمانى عشرة أو عشرين مدينة من المدن الكبرى بها مدارس للتعليم العالى ، وكان يختلف عددها في كل مدينة من مدرسة واحدة الى سبع مدارس . وفي هذه المدارس أيضا كان المدرسون عادة شيوخا تلقوا تعليمهم في الأزهر ، وكانت هذه المدارس بدورها تمد الأزهر بمعظم طلابه ، وسنفصل هذا فيما يلى .

- أما بالنسبة للماليك فان هذا اللون من التربية الخاصة بهم والذي كان سائدا من قبل ، لم يعد قائما .

### غياب العلوم الطبيعية والرياضية وسيادة علوم اللغة والدين :

وإذا كان بعض المؤرخين يؤكد أن التعليم في العصور الوسطى سواء في الشرق أو في الغرب كان تعليما دينيا بحثا يرمى الى تهذيب روحانى أى الى تربية دينية أخلاقية تعد الفرد لا لهذا العالم الذى يضطرب بأسباب الحياة والذي يعيش فيه هذا الفرد ، بل لعالم آخر لا يصل اليه الا بعد أن تخلص روحه من أدرانها ، وبالتالي لم يكن هذا التعليم يهتم بأعداد الفرد بما ينظم العلاقة بينه وبين أفراد المجتمع الذى يعيش فيه أو بما يكسبه قوة ومهارة في معالجة أسباب المعاش بقدر ما كان يهتم بعلاقة الفرد بخالقه كما كانت

تصورها في العصور الوسطى . . . نقول اذا كان البعس يؤكد هذا . فأننا لا ينبغي أن نعم بهذا القول على « الثقافة » التي كانت قائمة في الوطن العربي منذ قيام الدولة الإسلامية الموحدة ، فالحق أنها كانت تزخر بالوان العلوم الطبيعية والرياضية وغير ذلك من أسباب مغالبة الحياة وترقية شأن المجتمع .

ومع ذلك ، فقد ذبل كل هذا فيما بعد ، وأصبحت معاهد التعليم لا تدرس الا علوم اللغة والدين والفقه . واذا كان التعليم في الأزهر أيام الأيوبيين قد بدأ بدراسة الفقه على المذاهب الأربعة وبعض العلوم الحديثة كالحساب والهندسة والفلك مما اكسب الأزهر أهمية كبرى وشهرة في العالم الإسلامي أجمع ، الا أنه أصيب بما أصيبت به سائر جوانب المجتمع المصري في العهد العثماني من جمود وركود ، فتحجرت دراسة اللغة والأدب بعد أن كانت موضع دراسة مستفيضة ، وأصبحت دراسة الفقه والحديث جامدة تحفظ عن ظهر قلب ، وأخذت مظهرها شكليا محضاً ، وأصبحت قائمة على الحفظ والاستظهار كالدراسة المدرسية في أوروبا في العصور الوسطى ، وزالت منه علوم الحياة على وجه التقريب الا ضرباً من الحساب مست الحاجة اليه في مسائل الموازيت وبعضها من مبادئ علم الهيئة لضبط الوقت وتحديد مواعيد الصلاة وبعض نظريات الهندسة والفلك ونحو ذلك .

واذا ضربنا مثلاً آخر باستقراء لحالة الدراسات الطبية ، فسوف نجد أن في أوائل القرن السابع عشر ، كانت لا تزال هناك بقايا من العلوم الطبية التي عرفها المسلمون في عصورهم المزهرة ، وان كانت قد تأثرت هذه البقايا كثيراً بالسحر والخرافات . ورغم هذا ، فقد ألقت مصر وسوريا بعض الوسائل والكتب في الطب . وخير هذه الكتب هو « تذكرة داود » لصاحبها داود الأنطاكي ، وهو طبيب ضرير ، ولد في أنطاكية ، وفيها درس الطب وعلوم الأوائل واللغة اليونانية على رجل من العجم كان قد وفد على بلده ، ثم رحل داود بعد ذلك الى دمشق ، واستقر في القاهرة سنين طويلة ، وزار مكة أخيراً ، وبها توفي سنة ١٠٠٨ هـ .

وكانت مهنة الطب تورث - كبقية المهن - في معظم الأحوال ، ومع هذا لم يكن غريباً أن تجد قاضياً أو عالماً يعين رئيساً للأطباء .

والظاهرة الجديدة أن المجتمع المصري ، بدأ يستعمل الى جانب الطب العربي المعتمد على الطب اليوناني القديم ، نوعاً جديداً عرف بالطب النبوي .

وهو اثبتت من المعلومات القائمة على دراسة الاشارات الطبية والصحية الواردة في الاحاديث النبوية .

وقد اورد العالم الفرنسى « روييه ، Rouyer معلومات كثيرة عن حالة الطب في مصر في أواخر القرن الثامن عشر في الفصل الذى كتبه في كتاب Description de Le Egypte وعنوانه Notice Sur les Médicaments Usuels Egyptiens ونبعا لهذا ، تأخر علم الصيدلة والأقرباذين ، كما تدهورت أحوال المستشفيات ، وأصبح البيمارستان يستعمل مستشفى للعلاج ومصححة للأمراض العقلية ، وظهرت طبقة الحلاقين الصمحين تمارس العلاج والجراحة .

ولكن فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن عشر ، بدأ يظهر فى القاهرة عدد من الأطباء الأوربيين وعدد من الصيدليات الأوربية ، ويذكر Rouyer أنه كان يوجد فى القاهرة ثلاث صيدليات واحدة مديرها يونانى ، والآخران يديرهما جماعة من البنادقة . وكان معظم روادها من الأوربيين والسوريين المسيحيين ، ومع هذا كان يتردد عليها نفر من المصريين - مسلمين وأقباط - يضاف الى هذا أن كتابين أوربيين فى الطب قد ترجما الى التركية والعربية فى أواخر هذا القرن ( ١٨ ) ( ١ ) .

وحتى بالنسبة لبعض الدراسات الانسانية كالجغرافيا والتاريخ نجد أنها انقطعت انقطاعا يكاد يكون تاما فى هذا العصر ، ولا نكاد نجد مؤرخا مصرية له شأن أو قيمة بعد ابن اياس ، اللهم الا اذا اعتبرنا صوفيا كالشعرانى مؤرخا حين يكتب كتابه « الطبقات الكبرى » فى تراجم الصوفية .

حقيقة لقد ظهر فى مصر فى العصر العثمانى عدد من المؤلفين الذين كتبوا فى التاريخ ، ولكنهم فى جملتهم لا يستطيعون أن يرقوا الى مرتبة من سبقوهم من مؤرخى القرن الخامس عشر أو القرون التى قبله .

وبدلا مما كان يحدث بالنسبة للأوربيين عندما كانوا يرون أعمال العلماء العرب وتجاربهم العلمية من اندهاش وذهول ، أصبحنا نرى وصفا

---

(١) جمال الدين الشبالي : محاضرات فى الحركات الإصلاحية ومراكز الثقافة فى الشرق الاسلامى الحديث ، معهد الدراسات العربية . ١٩٥٨ . ص ١٢ - ١٣ .

يوقفنا فيه الجبرتي على ما كان لديه ولدى سائر المصريين في ذلك الوقت من جهل بالعلوم الطبيعية والرياضية . فهو يتحدث عن أشياء كان علماء العرب يعرفون بعض الشيء عنها حديث الذى يرى شيئا لأول مرة .

كذلك يصور لنا فى حوادث عام ١١٦٢ هـ مقابلة بين أحمد باشا المعروف بكوروزير والذى تولى أمر مصر فى ذلك الوقت . وكان من أرباب الفضائل وله رغبة فى العلوم الرياضية وبين صدور العلماء فى ذلك الوقت وهم الشيخ عبد الله الشبراوى شيخ الجامع الأزهر ، والشيخ سالم النفراوى والشيخ سليمان المنصورى ، فتكلم معهم وناقشهم وباحثهم ثم تكلم معهم فى الرياضيات فأحجموا ، وقالوا لا نعرف هذه العلوم فتعجب وسكت (١) .

### الطريقة الخرافية منهج الثقافة السائدة :

واذ تبلغ قوة النظام الاقتصادى الدرجة التى لا تصل فيها الجمهرة الكبرى من أبناء المجتمع الى الحد الأدنى الضرورى للحياة ، فانهم يشعرون بالعجز والضعف مما يدعم الاستعداد لديهم للتعلم بالفهيات وما يتصل بها كملجأ يستعينون به على مواجهة الواقع المرير الذى عجزوا بالوسائل الطبيعية عن مواجهته .

كذلك فان غياب العلوم الطبيعية والرياضية بالمرّة ، وسيطرة لون آخر من العلوم التى تقتصر على بعض الجوانب اللغوية والدينية بمعان تبعد فى الواقع عن حقيقة اللغة وجوهر الدين ، من شأنه أن يباعد بين الناس وبين ممارسة الأسلوب العلمى فى التفكير ، فتظهر الخرافات وتسيطر طريقة التفكير الخرافى على التفكير وأسلوب المعاملة بين الافراد بعضهم البعض الآخر .

ويضاف الى ذلك شدة وقسوة الحكم وشيوع الاستبداد ، فذلك من شأنه أيضا أن يساعد الناس على أن ينهجوا نهجا خرافيا ، بل ان هذا الصنف من الحكم يهيئون للظروف التى تشجع الناس على ذلك ، لأنه من المهم لهم بالدرجة الاولى أن يعيش الشعب أغلب الأوقات ان لم تكن كلها فى غيبوبة تامة لا يدري من أمر الواقع شيئا ، وأن يعتقد أن كل ما يحدث من

آلام ومصائب أمور مقدرة لا قبل لأحد بها وأنه هكذا كتب عليهم الذل والمسكنة ، ومن ثم يستسلمون لبطش الحكام واستبدادهم .

فاذا وجهنا النظر الى طريقة التعليم القائمة في معاهد التعليم وهي الأزهر والكتاتيب ، فسنجد أنها مما يمكن أن نسميه « بالطريقة السالبة » ، حيث يقف المتعلم أمام ما يقرأ أو يسمع موقفا سلبيا بحثا لا فاعلية له الا استقبال المعلومات واختزانها في ذاكرته حتى يأتي الوقت المناسب لاستظهارها واستعادتها . ويرتبط بذلك أيضا اعتماد هذه الطريقة الاعتماد الكلي على الجانب النفظي ، فالكلام لا ينتج الا كلاما ، وكان هذا منطقيا بالنسبة للعلوم والمواد التي كانت تدرس خاصة وأنها قد سيقت بطريقة تلفها في لفائف من الغموض والابهام ، الأمر الذي احتاجت معه الى حواش وشروح وتلخيصات وتقارير ، وما الى ذلك من طرق لم تكن تضيف جديدا بقدر ما كانت تعيد القديم في صورة أخرى .

ويذكر أحد الطلبة القوقازيين كيف أنه حين حضر أول درس اجتمع مع لفيف من الطلبة حول كرسي عال أعد لجلوس الأستاذ ، وانتظروا قدومه حتى أقبل ، وكان عددهم نحو المائتين ، وهذا العدد كان يتفاوت بالطبع فهما وإدراكا ، لأن البعض مبتدئ ، والبعض سبق له حضور هذه الدروس ، والبعض يعيدها للمرة الثالثة والرابعة . فأول ما جلس الشيخ ، فتح الطلبة كتاب التدريس ، وهو الكفراوى ، وبعد أن حمد الشيخ وصلى على النبي أخذ يشرح البسملة ويعربها ويفسر الباء وسبب زيادتها ووجه وجودها والحكمة منها وأقوال النحاة في اعرابها والجائز والممتنع الى آخر ما هو معروف ومشهور « بسم الله الرحمن الرحيم . الباء حرف جر واسم مجرور بالباء وعلامة جره كسرة ظاهرة في آخره . والجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره أوئف ، وأؤلف فعل مضارع مرفوع لتجرده من الناصب والجازم ، والفاعل ضمير مستتر وجوبا تقديره أنا ، هذا ان جعلت الباء أصلية ، وان جعلتها زائدة فلا تحتاج الى متعلق به ، ونقول في الاعراب حينئذ : الباء حرف جر زائد ، واسم مبتدأ مرفوع بالابتداء ، وعلامة رفعه ضمة مقدرة على آخره منع ظهورها اشتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد والخبر محذوف تقديره اسم الله ، والله مبدوء به . . . » الخ (١) .

---

(١) أحمد أمين : زعماء الإصلاح في العصر الحديث ، النهضة المصرية ، ١٩٤٩ ، ص

ويعلق الطالب القوقازى على ذلك بقوله « فكنت بين الطلبة كمن يسمح درسا بلغة لم يسمعها ولا يعرف اسمها » . كذلك يعلق أحمد أمين على نفس الموضوع قائلا : « فلو أن متكلما تكلم بالسريانية لكان أهون » .

كذلك فإن نظرة الى أسماء بعض الكتب التى كانت تدرس توقفنا على مبلغ ما كان يقوم عليه التعليم من اللفظية التى لا توحى بابتكار ولا تشجع على تأليف وإبداع ، فمن ذلك : أم البراهين الصغرى للشيخ محمد يوسف السنوسى - أم البراهين الكبرى للسنوسى ( فى التوحيد ) الأنوار القدسية لعبد الوهاب الشعرانى - تحفة الاطفال للشيخ سليمان الجنزورى - صحيح البخارى - شرح القسطلانى والعسقلانى والعينى وزكريا الأنصارى - موطا الامام مالك فى الحديث ، الجزرية للشيخ محمد الجزرى فى القراءات . الخ .

ولم يكن العيب عيب الكتب بقدر ما كان يشيع من أن حفظها هو التعليم المطلوب ومن ثم كان الطلاب يحفظونها قبل دراستها من غير فهم ، وكان أصحاب هذه المتون يتنافسون فى سلوك سبيل الإيجاز فيها ، وقد استوجب هذا أن تكون أكثر عناية تلك الكتب التى وضعت لشرحها - تفسير غوامضها وحل معقداتها وبهذا ضاعت فيها العناية بدراسة مسائل العلوم التى وضعت فيها .

### معاهد التعليم القائمة :

واذا أردنا أن نستقرئ أحوال معاهد التعليم التى كانت قائمة فى هذا العهد فسوف نجد ما يأتى :

١ - **الأزهر** : ظل الأزهر يتابع وظيفته التعليمية والدينية وإن كانت المصائب التى أصابت مصر فى ذلك الوقت قد نالت به شئ يستحق الإشارة إليه ، فقد أخذ العثمانيون الكتب والمحفوظات والعلماء بالأزهر الى تركيا أغنياءهم وفقراءهم . وفى هذا العهد أيضا نهبت أوقاف الأزهر وأهملت شئونه . وعلى الرغم من كل ذلك ، وعلى الرغم من المذابح التى قام بها العثمانيون فى القاهرة ، إلا أنهم لم يتقدموا الى اللاجئين بحمى الأزهر الأزهر الشريف بأى سوء إجلال له وتقديس للحرية التى ظل يتمتع بها طويلا .

ولقد أنشئ منصب ( شيخ الجامع الأزهر ) إبان حكم السلطان سليم ليديره بعد ما كان السلطان هو الذى يديره ، وكان الهدف من تعيين شيخ أن يتحمل مسئولية ادارة الجامع الذى ازدادت مشاكله وتعددت أعماله بعد تطوره إبان حكم المماليك .

وعندما زار أبو بكر العياشى المغربى القاهرة سنة ١٠٣٧ هـ أثبت ما شاهده من عدم انقطاع الدراسة والعمل بالأزهر الشريف طوال اليوم ، فقال : « وبتنا الليلة بالجامع الأزهر لأنها ليلة سبع وعشرين من رمضان . وفى الحقيقة ، كل الليالى بذلك المسجد جليلة القدر لانه معمور بالذكر والتلاوة والتعليم آناء الليل وأطراف النهار ، لا تنقطع منه العبادة ليلا ونهارا ، صيفا وشتاء » (١) .

ومن وظائف الأزهر المتصلة بشئون التعليم فى ذلك الوقت ، وظائف مشايخ الأروقة وكانت موضوعا للتنافس . وكان شيخ الأزهر لا يعين الا بعد أن يؤخذ رأى علمائه . والمعايير التى كانوا يحتكمون اليها فى هذا الاختيار هى : الكفاءة والمقدرة والاستقامة بغض النظر عما عليه هذا الشيخ من مذهب وقد بلغ بعضهم منزلة رفيعة عند الحكام ، وعاشوا عيشة الأمراء فى مسكنهم وملبسهم ومآكلهم .

وإذا كان الطالب فى عصور الأزهر الأولى لا يحصل على اجازته من أستاذه الا بعد طول صحبة فى القراءة والتعليم والامتحان الدقيق ، الا أن هذا العهد قد شهد تساهلا كبيرا فى ذلك ، فقد أصبح من الممكن أن يقرأ الطالب بعض الفصول الأولى فى كتاب أو كتابين مما يدرسه الأستاذ فيكتفى بذلك ويمنح الشهادة المطلوبة ، بل لقد أعطيت الاجازة لطلاب فى بلاد بعيدة بالمراسلة وهكذا بلا تدريس أو امتحان . وشذ من هؤلاء العلماء محمد بن حسن بن جمال الدين الشافعى المتوفى سنة ١١٩٩ هـ ، فقد ذكر الجبرتى : « أنه كان صعب الاجازة ، لا يجيز أحدا الا اذا قرأ عليه الكتاب الذى يطلب الاجازة فيه بتمامه ، ولا يرى الاجازة المطلقة ، ولا المراسلة ، حتى أن جماعة من أهل البلاد البعيدة أرسلوا يطلبون منه الاجازة ، فلم يرض ذلك ، وهذه الطريقة فى مثل هذا الزمان عسيرة جدا » (٢) . وعندما كان أحد الشيوخ ينتهى من تدريس كتاب ، كان يقام احتفال كبير بهذه المناسبة .

(١) محمد سيد كيلانى : الأدب المصرى فى ظل الحكم العثمانى ، ص ٣٠٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢ .

وفى وسط الجمود والاستبداد والفساد مما كان شائعا فى هذا العهد وخاصة فى سنواته الاخيرة ، وقف الأزهر ليلعب دورا من أروع أدواره ، فاذا كان لم يقتصر على أن يكون مكانا لممارسة الطقوس الدينية فحسب ، فزاد على ذلك بأن أصبح معهدا تعليميا ، الا أن زعماء فى هذه الفترة أدركوا ما يجب عليهم أن يقوموا به باعتبارهم القيادة الفكرية الواعية لهذا الشعب ، فوقفوا غالبا فى وجه الحكام عندما كانوا يلمسون منهم ظلما واستبدادا ، ولم يجرؤ الحكام على أن يعصوا لهم أمرا . ولعل أمثلة من تاريخنا توقفنا على ذلك :

- فنسمع فى عام ١١١٤ للهجرة أى فى سنة ١٧٠٢ للميلاد « أن أهل الأسواق أصابهم غبن من وراء تزيف النقود ، فاجتمعوا ودخلوا الجامع الأزهر وشكوا أمرهم الى العلماء والزمومهم بالركوب معهم الى الديوان » . فامر الباشا باجتماع عام يحضره الأمراء والقاضى التركى والأغوات ( قواد الجيش ) ونقيب الأشراف وكبار العلماء . ونظر المجتمعون فى الأمر واستقر رأيهم على خطة محددة تحفظ مصلحة الناس وتزيل شكواهم(١) .

- ونسمع فى عام ١١٤٨ هـ ، ١٧٢٥ م أن السلطان أرسل الى مصر أمرا خاصا بشئون مالية بقصد ابطال بعض المرتبات التى كانت تصرف فى وجوه خيرية ، واجتمع أعضاء الديوان لتلقى ذلك الأمر ، فلما قرئ المرسوم السلطانى بادر القاضى العثمانى فقال : « ان السلطان لا يخالف وتجب طاعته » ، فانبرى له أحد الأعضاء المصريين وهو الشيخ سليمان المنصورى ، فقال : « يا شيخ الاسلام هذه المرتبات كانت من فعل نائب السلطان . وفعل النائب كفعل السلطان : وهذا شئ قد جرت به العادة فى مدة الملوك المتقدمين وتداوله الناس ورتبوه على خيرات ومساجد وأسبلة ، فلا يجوز ابطال ذلك ، واذا بطل بطلت الخيرات وتعتلت الشعائر المرصد لها ذلك ، فلا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يبطله ، وان أمر ولى الأمر بابطاله لا يسلم له ويخالف أمره لأن ذلك مخالفة للشرع ولا يسلم للامام فى فعل يخالف الشرع » . وكانت وقفة الشيخ الجليل سببا فى عدول الحكومة عما كانت عليه .

٢ - **المساجد الكبرى** : فقد ظلت بعض المساجد الكبرى الأخرى غير الأزهر تشارك كمعاهد تعليمية فى النشاط التربوى ، من ذلك ما كان يحدث

---

(١) محمد فريد أبو حديد : زعيم مصر الأول السيد عمر مكرم ، ص ٢٧ وما بعدها .

بالنسبة لجامع البحر بمياط ، فقد وصف أبو بكر العياشى فى سنة ١٠٣٧هـ دمياط ومسجدها الكبير فقال : « وهى - دمياط - مدينة كبيرة ممتدة على ساحل النيل ، ذات مساجد كثيرة ، وأسواق حافلة وخانات عامرة ، ومرسى عجيبة ، غصت بها السفن الكبار والقوارب الصغار وفيها من أنواع الفواكه والثمار ، وصنوف الأطعمة ما لا يكاد يوجد فى غيرها ، ، « وكان نزولنا بمسجدها الكبير ، وهو مسجد وثيق البناء ، فسيح الفناء ، على ساحل البحر ، يضرب الماء سوره ، يتناول الشارب والمتوضئ الماء بيده من البحر ، وهو جالس فى باب المسجد . وفى المسجد طائفة من الطلبة يقرءون ويدرسون على هيئة ما فى الأزهر<sup>(١)</sup> .

وفى طنطا جامع أحمد البدوى وبخاصة بعد أن جده على بك الكبير وزوده بمكتبة ورصد له أوقافا ، وخصص الطعام والكساء لطلبته . وفى دسوق جامع إبراهيم الدسوقي .

ومن المعروف أن الشيخ « محمد مرتضى الزبيدى » ( ١١٤٥ هـ - ١٢٠٥ هـ ، ١٨٣٢ - ١٨٩١ م ) كان يعطى دروساً أسبوعية فى جامع شيخون بالقاهرة ، وأقبل عليه علماء الأزهر فى أول الأمر ثم أصبح درسا عاما ، وأقبل الناس على سماعه من كل حذب وصوب ، ومن كل الطبقات : والتمس الحضور مع الشيخ إلا يكتف برواية الأحاديث وأسانيدها ، بل يشرحها لهم ، فأجابهم الى طلبهم ، وانتقل - كما يقول الجبرتى - « من الرواية الى الدراية » ، وصار درسا عظيما وأصبح الزبيدى بعد هذه الدروس حديث الفوم فى حى الصليبية والقلعة ، بل فى الأوساط العلمية كلها فى القاهرة فطلب منه أهل حى الحنفى أن يخصصهم بدرس آخر ، فأجاب سؤالهم ، وافتتح درسا جديدا فى المسجد ، فارتفعت مكانته وأقبل عليه الناس من كل فج لسماع الدروس الجديدة . . . وهكذا .

### ٣ - معاهد أخرى :

وقد أنشأ محمد بك أبو الذهب سنة ١١٨٧ هـ معهدا عاما أنفق عليه أموالا طائلة ، وعين به عددا كبيرا من أساتذة الأزهر ، وجعل له مكتبة تحتوى عددا كبيرا من الكتب النفيسة كان من بينها « شرح القاموس المحيط »

(١) محمد سيد كيلانى : مرجع سابق ، ص ٤١ .

للزبيدي ، وهي النسخة الخطية التي كتبت في حياة المؤلف • ورصد له الأوقاف اللازمة للانفاق على المدرسين والطلبة ، ولكن هذا المعهد خرب بعد وفاة منشئه •

وكان بالقاهرة مدرسة للطب في المارستان المنصوري • وقد جاء الى مصر في أوائل هذا العهد ، داود الأنطاكي ودرس داود في المارستان المنصوري ، وتخرج على يديه طلبة كثيرون اشتهر منهم أحمد بن سراج الدين المعروف بابن الصائغ الشيخ الرئيس ، تولى مشيخة مدرسة الطب وتوفي سنة ١٠٣٦ هـ ، فخلفته بنته • ثم نبغ طبيب مصرى آخر ، هو مدين بن عبد الرحمن القوصوني ، كان موجودا سنة ١٠٥٤ هـ وهو من تلاميذ داود ، ومن مؤلفاته في الطب : قاموس الأطباء في المفردات • واشتهر كذلك أحمد ابن سلامة القليوبى المتوفى سنة ١٠٦٩ هـ وكان « فى الطب ماهرا خبيراً ، حسن التقرير يبالغ فى تفهيم الطلبة ويكرر لهم تصوير المسائل » (١) •

#### ٤ - الكتاب :

وبطبيعة الحال استمرت « الكتاتيب » كما كانت منذ أن نشأت تواصل المهمة التعليمية التى وجدت من أجلها ، بالإضافة الى قليل من المدارس استطاعت أن تستمر رغم ما كان يحدث فى البلاد من تخريب وافساد (٢) •

(١) المرجع السابق ، ص ٤٤ •

(٢) محمد عبد الجواد : فى كتاب القرية ، مطبعة المعارف ١٩٣٩ ، ص ٢٥ - ٣١ •